عنان بن داود

تسلل القمر من بين السحب الزرقاء الكثيفة مصطحبا معه أشعته الفضية ليغرق بها الملك نبوخذ نصر . الذى كان يراقب ظهوره من فوق سطح قصره الذى يشرف على مدينته العظيمة بابل.

وما إن اكتمل ظهور القمر حتى أضاءت أشعته الفضية الأحجار الكريمة التى تزين الثوب اللامع للسلطان الموشى بخيوط الذهب والفضة والتى اجتمعت لتشكل قصة تمثل واحدة من بين بطولاته فى مصارعته للوحوش الضارية والذى استغرق صنعه أكثر من ثلاثة أشهر ... اشترك فى تطريزه اثنان من أمهر صناع المنسوجات فى بابل ... وتحرك الملك فى أنحاء سطح قصره بعد أن اطمأن لوجود القمر معه .. مرسلاً بصره إلى البوابات النحاسية التى تغلق على مدينته . واسترسل فى أفكاره مخططا لحربه التى كان يستعد لها .. لطرد الفراعنة من أورشليم والاستيلاء على المدينة المقدسة .. وتوصل فى النهاية إلى أفضل وسيلة لمعاقبة اليهود المقيمين بها لمعاونتهم للفراعنة!! وابتسم الملك فى هدوء بعد أن ارتسمت تفاصيل الخطة الحربية لمعركته القادمة فى عقله وهبط من فوق سطح قصره للقاء قواده الذين استدعاهم وكانوا بانتظاره ... ليبدأ فصل مهم من فصول التاريخ وليشهد العالم انتقال اليهود من أورشليم إلى العراق..

وعلى لوحة للمعركة مفروشة بالرمال حدد الملك بعصاه تفاصيل خطته الحربية لقواده .. وأعلمهم فى النهاية بأنه سيقود بنفسه المعركة ليدمر مملكة يهوذا التى تجرأ ملكها وخالف أوامره ... واحتفظ لنفسه بالعقاب الذى توعد به سكان المملكة المتمردة ..

اكتمل جيش الملك وتصدر هو الجيش بدروعه الحربية اللامعة ... وانطلق

نحو هدفه قاصداً مملكة يهوذا ... ليسجل التاريخ بعد ذلك حالة من أغرب حالات الحروب انتهت بأسر سكان مدينة كاملة وإرسالهم كأسرى لمدينة بابل ...

اجتاح نبوخذ نصر أورشليم عازما تدميرها وهدم هيكلها انتقاما من ملكها الذى استعان بالفرعون المصرى واختار الخضوع له رافضا دفع الجزية له .. كان يعرف تاريخ الأرض التى قرر تدميرها جيدا فمعلمه قضى معه الساعات الطويلة فى شبابه وهو يعلمه تاريخ الأمم والبلدان .. فمملكة يهوذا التى انطلق فيها رجاله ناشرين الموت والدمار كانت فى يوم من الأيام جزءا من الأرض الموعودة لبنى إسرائيل والتى أقامها يوشع بن نون خادم موسى عليه السلام وتابعه الذى استطاع أن يدخل أرض الكنعانيين بعد وفاة موسى وهارون عليهما السلام . وبعد استقرار بنى إسرائيل فى جزء من أرض فلسطين اجتمعوا تحت إمرة يوشع بن نون وهيمن عليهم بشخصيته القوية والتى حدت من نزواتهم وخلافاتهم المستمرة ، فلما مات يوشع .. سادت الفوضى من بعده وتغيرت فى قلوبهم عبادة الله الواحد الأحد لتسيطر عليهم رغباتهم القديمة فى عبادة الآلهة المصرية التى كانت مستقرة فى قلوبهم .. وقامت دولة القضاة وكان جميع أسباطهم الإثنى عشر يحتكمون إلى قاض واحد فيما يختلفون عليه وكان القاضى بمثابة الملك أو الحاكم ومن أشهر قضاتهم " دبورة " التى انتصرت على ملك كنعان وجدعون الذى حارب المديانيين ومن أعماله المجيدة أنه دعا القضاة إلى عبادة " يهوه " وإلى تقديس المعبد الذى بناه يوشع بن نون ولكنهم خالفوه وأقاموا معابد وضعوا فيها تماثيل للآلهة وفى بعض الأحيان كانوا يضعون أعمدة مقدسة .. وكان آخر القضاة " صموئيل " وفى عهده تم إخضاع الكنعانيين وتصدى لهجمات الفلسطينيين الذين أنزلوا بهم الهزائم المتتالية حتى رغب الإسرائيليون فى وجود ملك يتزعمهم مثل غيرهم ليحميهم ولينظم شئون حياتهم فكان شاؤول أول ملك على إسرائيل أو كما يسمى فى العربية " طالوت " ليبدأ حكم الملوك والأنبياء فكان لداود عليه السلام القوة والسطوة وسخر له الله الحديد وفى عهده عرف الإسرائيليون صناعة الحديد وقد قال الله تعالى

فى سورة سبأ الآية١١ : "وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ " . ومن بعده تولى ابنه سليمان عليه السلام وحكم أربعين عاما بنى فيه الهيكل وكان له أسطول فى البحرين الأبيض والأحمر إلى قصره جاءت بلقيس ملكة سبأ فى معجزة إلهية وبسببه تركت عبادة الشمس وعبدت الله الواحد الأحد .

وقسم سليمان دولته إلى إثنى عشر قسما رغبة فى ضم شمل بنى إسرائيل وربطهم جميعا بسلالة يعقوب فكانت قبيلتا يهوذا وبنيامين فى الجنوب وكان اختلاطهما بالأمم الأخرى محدودا فثبتتا على عبادة يهوه بينما كانت الأسباط الأخرى تعيش فى الشمال فتأثروا وعرفوا عادات الأمم الأخرى فى الآلهة والعبادات.

ومات سليمان تاركا خلفه ولى عهده وولده رحبعام الذى لم يستطع السيطرة على المملكة بكاملها أمام محاولة " يربعام بن نباط " مزاحمته على الحكم وكان يربعام من سبط أفرايم وأمه كانت أرملة تدعى " ضروعة " وكان من خصوم سليمان عليه السلام وهرب إلى مصر ولم يعد إلا بعد وفاته لينازع ابنه الملك .

ونجح يربعام فى مخططه واستقل بالأسباط العشر وكون بهم دولة إسرائيل شمال فلسطين وعاصمتها نابلس أما سبطا يهوذا وبنيامين فبقوا على ولائهم " لرحبعام " وكونوا مملكة يهوذا فى الجنوب وبقيت أورشليم عاصمة لهم . وكان بين الدولتين عداء بدون قتال .. وعمل " يربعام " على توسيع الفجوة وتعميقها بين الدولتين وعن تخلى دولته عن اليهودية فحرم على شعبه الحج إلى أورشليم وبنى لهم معبدا جديدا يحجون إليه وصنع لهم تمثالين من الذهب لعجلين جعل واحدا فى بيت "إيل " على حدوده الشمالية والثانى فى " دان " على حدوده الجنوبية وكان يقدم قرابينه أمام العجلين اللذين صنعهما . وبعد وفاته تفككت مملكته بعد أن حكمها ملوك ضعفاء تركوا ديانة بنى إسرائيل وانغمسوا فى عبادة العجل والأوثان حتى سقطت دول إسرائيل بيد الآشوريين بقيادة ملكهم سرجون عام ٧٢٢ ق. م . ولم يكتف سرجون باستيلائه على مملكة إسرائيل بل

جمع عددا كبيرا من الإسرائيليين كسبايا وساقهم إلى أقصى جزء فى إمبراطوريته الضخمة.

ولم تكن نهاية يهوذا أفضل حالا من إسرائيل ولكنها كانت أكثر تماسكا فى بدايتها منها فقد كانت شديدة التمسك بميراث داود وكانت عاصمتها أورشليم هى عاصمة داود وبها المعبد الذى بناه وكان رحبعام بن سليمان أول ملوكها الذى حافظ على ديانة " يهوه " واختلف الأمر بعد ذلك مع التسعة عشر ملكًا الذين حكموها وانتهى الأمر بعبادة الأعمدة والأوثان .. وكان الملك " صدقيا " آخر ملوك يهوذا وكان يقوم بدفع الجزية للملك نبوخذ نصر حتى ازداد التنافس بين ملك بابل وملك مصر على امتلاك العالم .. واتخذ " صدقيا " قراره ورفض دفع الجزية لنبوخذ نصر ملك بابل ليتخذ جانب الفرعون المصرى.

لم يكن نبوخذ نصر يفكر ولو للحظة واحدة فى دخول المدينة والاستيلاء عليها وحكمها وضمها لممتلكاته ولكن كل ما أراده هو تدميرها عقابا لها ولملكها على تحديهم السافر لسلطانه فكان يدمر كل مايلاقيه ، هدم المبانى والمنازل وأحرق المعابد وهدم الهيكل وطارد الملك " صدقيا " الذى حاول الهروب وقبض عليه وقتل أبناءه أمامه ومن بعدها سمل عينيه ليكون آخر ما رآه مقتل أبنائه .. وكان نبوخذ نصر يشعر بكراهية شديدة للمملكة وسكانها فلم يكتف بهدمها وحرقها .. فأمر بجمع سكانها جميعا وكانت أعدادهم تزيد على الخمسين ألفاً فأمر فقيد أيديهم وخرج من المدينة المحطمة ساحبا خلفه سكانها متجها إلى بابل العظيمة حاملا إليها السبايا من اليهود.

احتشد أهل بابل على باب مدينتهم منتظرين عودة ملكهم بعد أن وصلت إليهم أخبار نجاح حملته وجلبه معه سبايا من اليهود لا حصر لهم .. ملأت الحشود الشوارع ومداخل المدينة وتقدم وجهاء المدينة وأعيانها ومن تبقى بها من قادة الجيش للانتظار أمام الباب الذهبى الذى سيدخل منه الظافر نبوخذ نصر ... وسبقت سحب الغبار الكثيفة مقدم الجيش حتى تلاشت ليبدو نبوخذ نصر بثيابه الحربية ودروعه اللامعة وهو يتقدم الجيش وخلفه خيط أسود

طويل يبدو لا نهاية له .. كان يتضح ببطء شديد للمنتظرين كلما تقدموا لتدو ملامح الأسرى وهم مقيدون.. يجرون أقدامهم ببطء شديد تسبقهم نظراتهم الحائرة المليئة بالرعب والرهبة التى ازدادت كلما تقدموا بخطوات داخل المدينة التى بهرتهم بفخامتها ومظاهر الترف التى تبدو على ساكنى المدينة التى اخترقها الموكب وسط صيحات الفرحة من سكان مدينة بابل .

دخل اليهود خلف نبوخذ نصر إلى مدينته العظيمة التى جاء اسمها من لفظ "باب إيلو " باللغة الأكادية وتعنى باب الله والتى حملت العديد من الأسماء منها "تندير " والتى تعنى مركز الحياة و "ايريدوكى " أى الجنة أو المدينة الطيبة فقد كان البابليون يعتقدون أن جنة عدن هى فى نفس موضع بابل وأن " مردوخ " إلههم الأكبر هو مؤسس المدينة ولا يعرف تاريخ تأسيس المدينة بالتحديد وإن كان علماء الآثار يرجعونه إلى أربعة آلاف عام قبل الميلاد . وأصبح " مردوخ " رئيس الآلهة البابلية بسبب نفوذ بابل كعاصمة والتى تحولت إلى مركز دينى يفد إليه الحجاج للتبرك بمردوخ وبلغت بابل ذروة مجدها فى القرن الثامن عشر قبل الميلاد فى عصر "حمورابى" المشرع العظيم من الأسرة البابلية الأولى . الذى دون تعاليمه وقانونه الشهير على حجر من الديوريت الأسود يبلغ ارتفاعه حوالى ثمانية أقدام ويعلو اللوح نقش يظهر فيه حمورابى إلى اليسار مائلا أمام إله الشمس يتلقى منه شرائعه وتتألف شريعته من مقدمة تتحدث عن أسباب ظهورها ثم الفقرات القانونية التى تشمل حوالى ثلاثمائة مادة تدور حول قوانين القضاء والشهود والمنزل والبيع والشراء والأسعار والأجور والسرقة والتجارة والعائلة والزواج وأجور الحيوانات والغرامات والتعويض وحقوق وواجبات العبيد ثم خاتمة تشير إلى عدالة هذه القوانين وألقاب حمورابى ونصائحه للأجيال القادمة .

انتشر اليهود فى المدينة العظيمة التى بهرتهم بعظمتها وأسوارها العظيمة ومبانيها وحدائقها وخنادقها التى وصفها المؤرخ هيرودوت فقال عنها " إنها تقع فى سهل عظيم خصيب مربع الشكل ضلعه نحو ١٤ ميلا فيكون محيطها ٥٦

ميلا ومساحتها ١٩٦ ميلاً مربعاً وأن المدينة كانت محاطة بخندق عميق عريض مملوء بالماء ووراء ذلك سور ارتفاعه نحو ٣٠٠ قدم وعرضه نحو ٨٧ قدماً.

ومع ما تحمله كلمات هيرودوت من مبالغة لا يستطيع أحد تأكيدها أو نفيها إلا أنه من المؤكد أن بابل كانت تمثل عظمة حضارة بلاد الرافدين تزينها حدائقها المعلقة التى كانت واحدة من عجائب نبوخذ نصر الذى أمر بإنشاء تلك الحدائق العجيبة من أجل زوجته التى كانت ذات جمال باهر فأراد الملك أن يزين لها المدينة حتى لا تقع عيناها إلا على الجمال وحده فبنى لها طبقات عظيمة من الحجر تمت زراعتها بالزهور والأشجار والنباتات النادرة التى جلبها لها من كل أنحاء العالم وأحضر لها المهندسين الذين صمموا من أجلها طرقا للرى ترفع الماء وتخزنها فى الطبقات العليا فى صهاريج لسقى الأشجار والزهور والورود لكى تتمتع زوجته الجميلة بهوائها وجمالها ورائحتها وروعة منظرها.

وانتشر اليهود فى المدينة التى لم تعاملهم كغرباء بل انتشروا فيها وعملوا فى الزراعة والتجارة واحترفوا المهن التى كانت تشتهر بها بابل من حفر الأحجار الثمينة التى كانت تطرز وترسم عليها الحيوانات والزهور ... وتعلم اليهود من أهل بابل علم الفلك والتنجيم والسحر فكان أهل بابل يحددون أوقات الخسوف والكسوف قبل حلولها ووضعوا جدولا ثابتا للنجوم والأبراج .. كان يستعين بها التجار فى رحلاتهم إلى البلاد المجاورة التى يحضرون منها الذهب والعاج والأحجار الكريمة .. وكانت الأجواء فى المدينة المليئة بالحياة والتجارة والأموال تسمح لليهود بالعمل والحياة والاندماج مما جعل البعض من اليهود يقومون بشراء الأرض وزراعتها وأسست قرى لليهود على ضفاف النهر وأصبح لشيوخهم نفوذ على قومهم بعد أن استقروا وبدأت حاجتهم تشتد للتمسك بدينهم بعد رحيلهم وتهدم هيكلهم وضياع التوراة..خاف شيوخ اليهود من ضياع واندثار تعاليم اليهودية خاصة بعد اندماج اليهود فى مجتمعهم الجديد وبدأوا فى اتباع آلهة الكديانيين فظهرت الحاجة إلى التمسك بالدين من جديد وإنعاش

الديانة اليهودية التى انهارت فى أورشليم ووجدت تحديا جديدا لها فى مقاومة الوثنية التى كانت ديانة أهل بابل .. فعمل شيوخ وحاخامات اليهود على حثهم على عبادة يهوه وشريعة التوراة والتعاليم الدينية وكان وجود النبى دانيال الذى كان من السبايا حافزا مهما للتمسك بعبادة الله الواحد الأحد بما بذله من جهود هائلة فى نشر دعوة التوحيد وساعده على ذلك قدرته التى حباه الله بها من تفسيره للرؤى وهو موقف قريب من سيدنا يوسف فى مصر .. وساهمت تلك القدرة على تحسين وضع اليهود .. فذكر أنه فى السنة الثانية من حكم نبوخذ نصر .. شاهد أحلاما أزعجته وأثارت ضيقه ولم يجد لها تفسيرا لدى كهنة آلهته وسحرته ومشعوذيه .. وكان تكرار الحلم سببا فى بحثه عمن يجد له تفسيرا فقد رأى تمثالا عظيم الحجم له رأس من ذهب وصدر من الفضة وبطن من نحاس ورغم حجمه الهائل إلا أن حجرا واحدا قذف عليه فسحقه وحطمه ثم تحول الحجر إلى جبل.. وفسر له النبى دانيال الرؤيا بأنه هو الرأس الذهبى والأجزاء الأخرى من جسد التمثال ممالك ستخضع له .. فخر نبوخذ نصر ساجدا ومنحه العطايا والسلطة على كل ولاية بابل .. وسمح الوضع المميز لعلماء اليهود وأحبارهم فى جمع التوراة واستلهموا تراثهم الشفهى الفلسطينى الذى جلبوه معهم من فلسطين ومزجوه مع تراث الديانة البابلية وأساطيرها المعروفة مثل أسطورة الطوفان ، وقصة موسى وآدم وحواء ونظم العلماء التلمود البابلى.

واشتهرت فى بابل والتى أصبحت فيما بعد جزءا من العراق مدارس اليهود الدينية وخاصة مدارس نهردعة ، وسورا ، وبمبادينا فمدرسة نهردعة كانت مركزا مهما لليهود تجمع فيها هدايا يهود بلاد فارس وبين النهرين وبلاد العرب لهيكل أورشليم ومدارسها أما مدرستا سورا وبمبادينا فقد ذاعت شهرتهما وحصلتا على مكانة عظيمة فى آداب اللغة العبرية . وأصبح رؤساؤها علماء يؤخذ منهم العلم والرأى واستمرت اجتهاداتهم مئات السنين وأخرجوا التلمود البابلى الذى أصبح مرجعا للتفاسير الدينية والمعاملات الدنيوية حتى الآن.

وتآلف اليهود تماما مع حياتهم الجديدة فى بابل حتى حدث متغير جديد واستطاع قورش ملك فارس الاستيلاء على بابل عام ٥٣٨ ق.م وأذن لمن يرغب من اليهود بالعودة إلى أورشليم مرة ثانية فعاد إليها من كان بلا عمل وكبار السن الذين حنوا إلى الأرض القديمة ورجال الدين ومن لم ينجح فى تكوين ثروات وأملاك منهم وظل ببابل رجال الأعمال والتجارة وأصحاب الأراضى والمزارع الذين شعروا بالاستقرار فى أرض الرافدين والتى تحولت لديهم إلى وطن ثان حازوا فيه المناصب الرفيعة وتظل قصة إستير " اليهودية زوجة الملك أحشوبروش شاهدا على ما حققته لليهود من خدمات جليلة ونجحت فى إنقاذهم من مؤمرات الوزير هامان وحصلت لهم على أمر ملكى يجيز لليهود أن يدافعوا عن أنفسهم إن هاجمهم الفرس وهو ما حدث وأدى إلى مقتل خمسة وسبعين ألفا من الفرس حسب المصادر اليهودية وتحول هذا اليوم إلى عيد قومى لدى اليهود يحتفلون به فى ذكرى هذا اليوم فى الرابع عشر والخامس عشر من شهر آذار (مارس).

وعرف اليهود الاستقرار الكامل فى مدن خاصة بهم كان من أشهرها مدينة نهردعة على الفرات . وكانت هذه المدينة مركزا دينيا مهما .. ففيها كانت تجمع أموال التبرعات من اليهود المنتشرين فى أرض فارس وبلاد ماذى التى كانت جزءا من فارس ويرسلونها إلى أقاربهم فى أورشليم وقد اشتهرت مدرستها الدينية كما اشتهرت مدرسة سورا ومدرسة بمبادينا .. وظلت أحوال اليهود فى صعود وهبوط تبعا للدول التى كانت تصعد والأخرى التى كانت تختفى .. وكانت أكثر معاناة يهود العراق على يد أردشير " مؤسس الدولة الساسانية الذى استولى على بابل عام ٤٢٢م ليبدأ عهده بتضيق الخناق على اليهود فأمر باضطهادهم وسمح للمجوس بتعذيبهم والتنكيل بهم عقابا لهم على مساندتهم للفرس الوثنيين فى حروبهم مع أردشير ولم يستمر ذلك الاضطهاد لفترة طويلة بل نجحوا فى تحسين أحوالهم مع ملوك الساسانيين حتى أنهم نجحوا فى التقرب إلى أم الملك شابور الثانى التى ساعدتهم وأعادت إليهم الكثير مما

فقدوه وأثرت على ابنها فرفع عنهم الكثير من الاضطهاد وتقلد اليهود فى عهده المناصب الرفيعة .. وارتبطت أحوال اليهود بالملوك ولعب رؤساء المدارس الدينية الذين كانوا يعرفون بـ «الجاؤون» دوراً مهما والذين كانوا بمثابة المشرعين. وكلمة جاؤون تعنى بالعبرية (المتضخم) وكان لقبا يطلق على رؤساء المدرستين.

واستمر دور المدارس الدينية لقرون طويلة خرج منها الكثير من العلماء ويذكر أن مدارس سورا وبمبادينا بقيتا لحوالى ثمانية قرون مبعث العلم الدينى لليهود واشتهر من علمائها يوسف برشيجا فى القرن الرابع للميلاد وفى عهد الراب " آشى " رئيس سورا فى القرن الخامس تمت كتابة التلمود البابلى وذلك بعد نحو قرن من اتمام التلمود الفلسطينى وقد جاء من بعده عالمان أنجزا التلمود نهائيا فى الصورة المعروفة عنه الآن وهما " الراب توسيفا " والراب «أبينا».

ولم يكن جمع التلمود أمراً يسيرا بل استغرق سنوات طويلة وخضع لنظام شديد الدقة وضعته المدارس والتى كانت بمثابة جامعات .. فكانت تدعو إلى الاجتماع مرتين سنويا واحدة فى نهاية الصيف والأخرى عند انقضاء الشتاء وكان يحضر هذين المؤتمرين العلماء والأحبار ورجال الدين والدارسون من كل أنحاء العالم ولم يكن يشترط للحضور سن معينة أو درجة علمية محددة فكان الاجتماع مباحا للجميع وكان يسمح فيه بالمناقشة وطرح الأسئلة للوصول إلى فتاوى نهائية فى الأمور المطروحة والمسائل التى تحتاج إلى إبداء الرأى وفى النهاية وبعد الاتفاق يوقع رئيس الاجتماع والذى كان يسمى (ريشى كله) على الرأى الأخير الذى استقر عليه الاجتماع وبعد انتهاء هذه الجلسات التى استغرقت سنوات طويلة أصبح التلمود فى صورته النهائية .. والتلمود اسم عام للمشنا والجمارة ويطلق بنوع خاص على الجمارة وحدها وتحديدا التلمود البابلى أما المشنا أو الشريعة الشفهية فقد اختلف علماء اليهود فى أصلها فمنهم من نسبها إلى عزرا ومنهم من نسبها إلى سليمان وداود والبعض أرجعها إلى موسى عليه السلام والفريق الذى أرجعها إلى نبى الله موسى عليه السلام اختلفوا فى الرأى فبعضهم قال إن المشنا سلمت إليه كتابة والبعض قال إنه

تلقاها من الله سبحانه وتعالى شفاهة . وهى تحتوى على أحكام دينية وقضائية تفسر أحكام التوراة أو شريعة موسى وتنقسم إلى ستة أقسام الأول " سداريم " ويبحث فى أمور الزراعة والثانى " موعيد " ويبحث فى المواسم والأعياد والثالث " ناشيم " ويتحدث عن النساء وحقوقهن والرابع (فلؤكين) ويبحث فى العقوبات والخامس (قادشيم) بمعنى المقدسات ويتناول أمور الذبائح أما السادس (طهوروت) ويدور حول الطهارة والنجاسة ويختلف التلمود الفلسطينى عن البابلى .. فالتلمود الفلسطينى يذكر كل فقرة أو قضية من المشنا يليها الجمارة أما التلمود البابلى فيكتفى بالإشارة إلى صفحة المشنا ويعقبها بالجمارة .. والتلمود البابلى يبحث فى ٣٦ رسالة ونصف من المشنا ولغته الآرامية الشرقية والتلمود الفلسطينى مكتوب بالآرامية الغربية .. ورغم أن الرسالات التى يبعثها التلمود البابلى أقل من الفلسطينى إلا أن حجم البابلى يفوق الفلسطينى بنحو ثلاث مرات .. مما جعله يعد هو الكتاب الرئيسى لليهود ونال مكانة عالية لديهم وفاقت مكانته الفلسطينى ..

وهكذا عاش اليهود فى العراق .. فى حالة استقرار .. تتغير أحوالهم تبعا لمن يصل إلى الحكم يتعرضون أحيانا لاضطهاد الحكام وفى أحيان أخرى تقوى مكانتهم ولكن ازدادت معاناتهم فى القرن السابع تحت مظلة حكم الفرس الوثنيين الذين لم يكن يرضيهم ما يعتنقه اليهود من ديانة التوحيد وهو ما جعل اليهود يستبشرون بالفتوحات الإسلامية وبأتباع نبى الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم الموحدين بالله .. وفى منتصف القرن السابع الميلادى تولى البستانى " منصب رأس الجالوت والذى يعنى زعيم المنفيين أو المهجرين وهو المسئول عن الجالية اليهودية فى العراق وذكر فى المصادر اليهودية أن البستانى قدم خدمات جليلة للفتح الإسلامى مما دفع الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه بقبول منصبه على رئاسة الجالوت وأقر بسلطته على أبناء قومه .. مما منح اليهود فى البلاد الإسلامية والعراق حرية العبادة وتمتعوا بحالة من الاستقرار والهدوء استمرت لفترات طويلة فى عهد يزيد الأول وفى عهود خلفاء الدولة العباسية ..

وكانت رئاسة الجالوت أو زعامة الطائفة اليهودية من أبرز الأمور التى تمتع بها اليهود فى زمن الخلفاء المسلمين فلقد ذكر الرحالة اليهودى بنيامين التطبلى الأندلسى الذى زار بغداد عام ٥٦٦هـ فى زمان الخليفة المستنجد بالله بأن رئاسة الجالوت أصبحت وراثية فى عائلة حسداى وقال عنهم " رئيس هؤلاء العلماء جميعهم هو الربى (الربانى) دانيال بن حسداى الملقب سيدنا رأس الجالوت ، ويسميه المسلمون سيدنا ابن داود ، لأن بيده وثيقة تثبت انتهاء نسبه إلى الملك داود ، وهو يستمد سلطاته من كتاب عهد يوجه إليه من الخليفة أمير المؤمنين عملا بالشرع المحمدى ، وينتقل هذا المنصب إلى ذريته بالوراثة ، وعند تنصيب الرئيس يمنحه الخليفة ختم الرئاسة على أبناء ملته كافة ، وتقضى التقاليد المرعية بين اليهود والمسلمين وسائر أبناء الرعية بالنهوض أمام رأس الجالوت وتحيته عند مروره بهم ومن خالف ذلك عوقب بضربه مائة جلدة .

وأصبح رأس الجالوت من الشخصيات التى اكتسبت قداسة ومهابة استمدها المنصب من الرعاية والموافقة الرسمية للخليفة الحاكم إلى تعاظم دوره بين اليهود حتى أن لقاء رأس الجالوت بالخليفة كانت تسبقه مراسم شديدة الدقة والنظام تفصح عن مكانته وأهميته وهو ما أكده بالتفصيل الرحالة بنيامين عندما شاهد بنفسه مراسم لقاء رأس الجالوت بالخليفة وقال عنه " عندما يخرج رأس الجالوت لمقابلة الخليفة يسير أمامه الفرسان من اليهود والمسلمين ، ويتقدم الموكب مناد ينادى بالناس " اعملوا الطريق لسيدنا ابن داود ، ويكون الرئيس ممتطيا صهوة جواده وعليه حلة من حرير مقصب ، وعلى رأسه عمامة كبيرة تتدلى منها قطعة قماش مربوطة بسلسلة منقوش عليها شعار الخليفة .

وعندما يمثل فى حضرة الخليفة يبادر إلى لثم يده ، وعندئذ ينهض الخليفة وينهض معه الحجاب ورجال الحاشية ، فيجلس الرئيس فوق كرسى مخصص لجلوسه قبالة الخليفة "

وكان رأس الجالون هو المسئول الدينى الأول عن يهود العراق ويهود البلدان الأخرى الذين كانوا يتبعون جميعا المذهب الربانى ما عدا بعض الفرق المتناثرة

هنا وهناك من السامريين والحسيديين والغربيين وكان الربانيون يعتقدون بأن التوراة كتبت وشكلت وتمت على يدى موسى عليه السلام إلى جانب التلمود الشارح والمشرع لدينهم وبإتمامه أغلق باب الاجتهاد ولم يعد هناك مكان للتغيير أو التبديل من بعده بما يحويه من تشريعات الزراعة والتجارة والزواج والطلاق والطهارة وغيرها من التفصيلات الشرعية .. وأصبحت بذلك أحوال اليهود الدينية والشرعية مستقرة على ما انتهى إليه علماؤهم .. وظل الحال على ما هو عليه حتى السنوات الأولى من القرن الثامن الميلادى تقريبا عندما ظهر " عنان بن النفس الزكية المطالب داود " ابن أكبر العائلات اليهودية العراقية التى تتوارث منصب رأس الجالوت وهو ما يعنى أنه كان عالما دينيا دارسا للتوراة وللعلوم الشرعية اليهودية .. كان ظهور عنان بمثابة انطلاق ثورة بركان خامد فى المجتمع اليهودى .. فلقد انطلقت آراؤه لتشعل نيران الخلاف بين الطائفة اليهودية وتشكل ثورة هائلة .. امتدت إليه هو نفسه آثارها وكادت تنهى حياته معلقا على حبل المشنقة .. بسبب قوله الجديد فى اليهودية .. مما دفع السلطة الدينية اليهودية القائمة إلى تكفيره واعتباره فتنة لابد من إخمادها وحل عليه العقاب لولا لقاؤه الشهير بالإمام أبو حنيفة النعمان فى أحد سجون الخلافة التى جمعتهما معا .. ليولد بعد ذلك المذهب القرائى ويكتب لصاحبه عنان .. عمر جديد . ومذهب جديد.

فى القرن الثانى الهجرى مات رأس الجالوت اليهودى بدون أن يخلف وريثاً يتولى أمانة المنصب .. وكان الحل الوحيد أن يتولاه أكبر أبناء شقيقه عنان بن داود الذى رأى أن الفرصة قد واتته ليصعد ليتولى زعامة الطائفة اليهودية ويصبح حراً فى إحداث التغيير الذى كان يحلم بأن يقوم به .. فهو كان مخالفا لكل الثوابت الدينية التى استقر عليها اليهود لمئات السنين .. فلقد كانت آراؤه التى أعلن عنها تصيبهم بحالة من الفزع والرعب بعد أن طالب اليهود أينما كانوا بأن ينبذوا التلمود وألا يطيعوا إلا قوانين أسفار موسى الخمسة فقط وأن يلتزم اليهود بها فقط وأن يعودوا بإيمانهم إلى الأصول اليهودية الخالصة النقية

والتخلص من كل ما استحدثه علماء اليهود على مدى سنوات طويلة.

كانت مطالبة عنان بن داود بأحقيته فى منصب رئيس الجالوت كافية تماما ليجتمع من أجلها زعماء ورؤساء المدارس الدينية اليهودية فى سورا وبمبادينا ويصلوا إلى اتفاق بينهم بعدم أحقية عنان والاتفاق على تولية " حنانيا " شقيقه الأصغر المنصب لإيمانه الكامل بقواعد وشرائع الديانة اليهودية المتفق عليها واعتبار عنان خارجا عن الديانة وكافراً بها وهو الأمر الذى استوجب عقابه .. وتم إبلاغ الخليفة أبو جعفر المنصور بما توصلوا إليه وطالبوه بسجن ومحاكمة عنان الكافر الخارج عن اليهودية وصاحب الآراء الهدامة ليستجيب الخليفة لما اتفق عليه زعماء الطائفة اليهودية ويتم القبض على عنان ليسجن فى انتظار تنفيذ حكم الموت الذى طالب به أهل طائفته ووافق عليه الخليفة القوى أبو جعفر المنصور الذى كان يترك لليهود حرية تقرير ما يرونه وفقا لمعتقدات دينهم .. وكان الخليفة نفسه يعانى فى نفس الوقت من أزمة خاصة به وهى رفض الإمام أبو حنيفة النعمان توليه منصب قاضى قضاة بغداد المدينة الجديدة التى أرادها أن تكون جوهرة للعالم الإسلامى .. فتحدى الإمام أبو حنيفة له ترك فى نفسه ألما شديداً وهو الرجل القوى والمؤسس الحقيقى للدولة العباسية وتعتبر الفترة التى قضاها المنصور فى الخلافة من أهم عصور الخلافة فقد حكم ما يقرب من ٢٢ عاما حكما قويا وجمع خلالها كل سلطات الدولة فى يده .. وفى زمن ذلك الرجل ظهر عنان وأعلن عن مذهبه الجديد وسجن فى سجون المنصور وخرج أيضا على يد المنصور .

ولد أبو جعفر المنصور واسمه بالكامل عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم عام ٩٥ هـ فى قرية الحميمة التى تقع فى معان جنوب الأردن ونشأ بين كبار رجال بنى هاشم .. فشب فصيحا ، عالما بالسير والأخبار ملما بالشعر والنثر وكان أبوه محمد بن على هو الذى نظم الدعوة العباسية وخرج بها إلى العلن واستعان فى تحركاته من أجل الاستيلاء على الحكم بالسرية والكتمان والدقة فى اختيار الرجال والأنصار والأماكن التى

يتحرك فيها دعاة حركته السرية وحين نجحت الدعوة العباسية وأطاحت بالدولة الأموية تولى أبو العباس السفاح الخلافة عام ١٣٢هـ واستعان بشقيقه أبو جعفر فى محاربة أعدائه والقضاء على خصومه وتصريف شئون الدولة حتى إذا مرض أوصى له بالخلافة من بعده فتولاها أبو جعفر فى عام ١٣٦ هـ وهو فى الحادية والأربعين من عمره .

عرف عن أبو جعفر الذى أصبح مصير عنان بن داود بين يديه بأنه رجل ذو هيبة ووقار وجبروت وكان يكره الحياة الناعمة والثياب الفخمة كان يرتدى منها أخشنها .. وكان يبتعد عن حياة الملوك المليئة باللهو والترف ولم يقف ببابه الشعراء الذين إعتادوا مدح الملوك لقاء الأموال والهبات .. فقد اتصف بالشدة واليقظة والحزم والاهتمام بمصالح الرعية ورويت عنه القصص التى أكدت قوته وصرامته وكراهيته للهو .. فقد ذكر حماد التركى أحد رجاله عنه " أنه كان واقفا على رأس المنصور فسمع ضوضاء وجلبة فى الدار فقال ما هذا يا حماد انظر !! فذهب فإذا بخادم له قد جلس بين الجوارى وهو يضرب على آلة " الطنبور " وهن يضحكن .. فجئت فأخبرته .. فقال وأى شىء الطنبور !! فوصفته له فقال له أصبت وصفه فما أدراك به !! فقال رأيته فى خراسان ثم قام حتى أشرف عليهم فلما بصروا به تفرقوا فأخذ الضارب وكسر الطنبور على رأسه وأخرجه من قصره .. " فلم يكن المنصور متفرغاً لأمور اللهو والمرح بل كان يسعى لتأكيد دولته والحفاظ عليها ومن أجلها خاض الحروب للقضاء على الثورات والاضطرابات الداخلية وحروبه الخارجية مع أبو مسلم الخراسانى وإخماد ثورات سفيان الثائر من أجل أبو مسلم وثورات الخوارج المتتالية وثورة محمد النفس الزكية المطالب بالحق فى الخلافة .. كانت شخصية الرجل طاغية فكان يهتم فى نفس الوقت بمجالس العلم والأدب والفن وانشأ مدينة بغداد التى رغب أن تكون عاصمة جديدة لدولته بعيدة عن المدن التى يكثر فيها الخروج على الخلافة كالكوفة والبصرة وتتمتع باعتدال المناخ وحسن الموقع فاختار بغداد على شاطئ دجلة ووضع بيده أول حجر فى بنائها عام ١٤٥هـ

واستخدم عددا من كبار المهندسين للإشراف على بنائها ، وجلب إليها أعدادا هالة من البنائين والصناع ، فعملوا بجد حتى فرغوا منها عام ١٤٩هـ وانتقل إليها الخليفة وحاشيته ومعه دواوين الدولة وأصبحت منذ ذلك الحين عاصمة الدولة العباسية وأطلق عليها مدينة السلام تيمنا بدار السلام وهو اسم من أسماء الجنة أو نسبة إلى نهر دجلة الذى يسمى نهر السلام ولم يكتف المنصور بتأسيس المدينة على الضفة الغربية لدجلة بل عمل على توسيعها بإقامة مدينة أخرى على الجانب الشرقى أطلق عليها الرصافة جعلها مقرا لابنه وولى عهده المهدى .

وتسبب الانتهاء من بناء مدينة بغداد فى تغيير أقدار الكثيرين ..

فبعدما حدثت الأزمة ما بين الخليفة المنصور والإمام أبو حنيفة وبسببها انتهى الأمر بسجن الإمام الورع وفى السجن حدث اللقاء ما بين عنان بن داود والإمام الذى أنقذ عنان من الموت بنصيحته وبعدها ظهر مذهب القرائين المتأثر بالحضارة الإسلامية وبشرائع الإسلام إلى النور.

قصة خلاف المنصور مع أبو حنيفة عميقة الجذور فالإمام الورع التقى المحب للرسول صلى الله عليه وسلم وآل بيته .. لم يجاهر بمعارضته للمنصور أبدا وإن كان لم يرضخ له أبدا .. وبداية القصة كانت مع جد الإمام الفارسى (زوطى) الذى أسلم وانتقل من بلده الأصلى " كابل " إلى الكوفة وقد التقى فيها بالإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه وكانت له صلة قوية به .. وتعلق قلبه بحب آل البيت وأنجب ولده ثابت الذى كان على اتصال بالإمام على رضى الله عنه ويقال إن الإمام على دعا لثابت بأن يبارك له فى ذريته .. وأن الله سبحانه وتعالى استجاب لدعائه فأنجب النعمان بن ثابت فقيه العراق أو أبا حنيفة النعمان الذى استقر فى قلبه حب آل البيت .. ونشأ أبو حنيفة فى الكوفة وحفظ القرآن الكريم وأخذ القراءة عن الإمام عاصم أحد القراء السبع وفى بدايته لم يتفرغ للعلم فقد نشأ فى بيت من بيوت التجارة فلقد كانت أسرته من تجار الحرير .. واستهوى العلم الإمام فدرس المذاهب والنحل وآثار الصحابة

ومجالسة العلماء ومجالس العلم التى تغلبت على نزعته التجارية .. فخصص قدرا من وقته للتجارة واتجه للعلم ومناظرة علماء الكلام والمعتزلة حتى أنار الله له قلبه فتوجه إلى الفقه وهو الأمر الذى قال عنه بنفسه راجعت نفسى ، وتدبرت فقلت : إن التابعين والمتقدمين من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، لم يكن يفوتهم شىء مما ندركه نحن وكانوا عليه أقدر وبه أعرف ، وأعلم بحقائق الأمور ، ثم لم ينتصبوا فيه منازعين ولا مجادلين ولم يخوضوا فيه ، بل أمسكوا عن ذلك ونهوا عنه أشد النهى ، ورأيت خوضهم فى الشرائع وأبواب الفقه وكلامهم فيه : إليه تجالسوا وعليه تخاصموا .. كانوا يعلمون الناس ويدعونهم إلى تعلمه ، ويرغبون فيه ، ويفتون ويستفتون ، وعلى ذلك مضى الصدر الأول من السابقين .. وتبعهم الناس إليه .

واتجه أبو حنيفة إلى الفقه ودرس علم الكلام والنحو والأدب والحديث واستخراج الأحكام من القرآن والسنة وكان ذات صفات عظيمة فهو شديد الهدوء بعيد عن الانفعال والضيق ثابت الجأش ، قوى القلب .. مستقل التفكير .. عرف عنه حبه لآل البيت والتقى بأئمة الشيعة من ذرية الإمام على وانتفع بعلمهم بدون أن يتشيع لآل البيت رغم إقامته بالكوفة التى عرف عنها التشيع والطعن فى أئمة الصحابة وكان يكرم الصحابة جميعا وذكر سعيد بن أبى عروبة واقعة شهدها بنفسه: «قدمت إلى الكوفة فحضرت مجلس أبى حنيفة .. فذكر عثمان بن عفان يوما .. فترحم عليه فقلت له : وأنت يرحمك الله . فما سمعت أحدا فى هذا البلد يترحم على عثمان بن عفان غيرك "

عاش الإمام الفقيه اثنتين وخمسين سنة من حياته فى العصر الأموى وثمانى عشرة سنة فى الخلافة العباسية .. وشهد بنفسه الدولة الأموية فى قوتها وضعفها وانهيارها وعرف العباسيين منذ بداية دعوتهم السرية وكان يرى أن لا حق للأمويين فى الخلافة ورغم ذلك لم يثر عليهم .. ولم يخف أبدا حبه لآل البيت وحقهم فى المطالبة بالخلافة بدون أن يتشيع لهم .. ويقال إنه عندما خرج زيد بن على ثائرا على هشام بن عبد الملك قال أبو حنيفة عنه " ضاهى

خروجه.. خروج رسول الله يوم بدر " ولم يخرج معه وإنما ساعده بالمال فبعث عشرة آلاف درهم .. ولم تخف ميول الإمام على عيون الأمويين الذين كانوا يصارعون لإنهاء ثورات آل البيت ويخشون فى نفس الوقت تعاطف العلماء ورجال الدين وخاصة الإمام أبو حنيفة لما كان له من منزلة عظيمة فى قلوب الناس متخوفين فى نفس الوقت من انضمامهم إلى الدعوة العباسية التى كانت تزداد قوة مع الأيام مما دفع ابن هبيرة الوالى الأموى إلى جمع العلماء والقضاة لمحاولة استمالتهم وكان من بينهم ابن أبى ليلة ، وابن شرفة ، وداود بن هند ومنح كل واحد منهم منصبا ليضمن ولاءهم لبنى أمية وأرسل إلى أبى حنيفة فرفض كل ما عرض عليه حتى أن الوالى عرض عليه أن يمنحه سلطة أعلى من الجميع فلا يخرج أمر ولا مال ولا حكم إلا بإذنه وبموافقته فرفض الإمام كل ما عرض عليه فأقسم الوالى الأموى إن لم يقبل الإمام بعرضه ليضربنه ... وهو ما أصاب العلماء بالذعر فذهبوا إلى أبو حنيفة متوسلين له أن يقبل خوفا عليه فرد عليهم الإمام " لو أرادنى أن أعد له أبواب مسجد واسط لم أدخل فى ذلك ، فكيف وهو يريد منى أن يكتب دم رجل يضرب عنقه ، وأختم أنا على ذلك الكتاب ! فوالله لا أدخل فى ذلك أبدا " .

وأمام إصرار الفقيه العظيم على رأيه نفذ الوالى تهديده وأمر رئيس الشرطة فحبسه وكان يضربه يوميا والإمام على رأيه حتى خاف الوالى أن يموت أبو حنيفة ويتعلق فى الدولة الأموية دمه وعار موته ... فأمر ابن هبيرة بإخلاء سبيله مقابل مغادرته البلاد .. فخرج أبو حنيفة من السجن متوجها إلى البيت الحرام لينعم فى الأراضى المقدسة ست سنوات التقى فيها بأبى العباس أول خليفة عباسى .. وقد بايعه وسط العلماء وقال " الحمد لله الذى بلغ الحق من قرابة نبيه صلى الله عليه وسلم وأمات عنا جور الظلمة ، وبسط ألسنتنا بالحق وقد بايعناك على أمر الله ، والوفاء لك بعهدك إلى قيام الساعة فلا أخلى الله هذا الأمر من قرابة نبيه صلى الله عليه وسلم " .

وكانت كلماته الكريمة تدل على سعادته بعودة الحكم إلى بيت النبى وهو

الأمر الذى استمر عليه حتى أظهر بنو العباس العداء للطالبيين الذين تحالفوا معهم فى بداية الأمر عندما طالبوهم بحقوقهم طاردوهم وقتلوهم .. وازداد ألم الإمام عندما ثار محمد النفس الزكية وشقيقه إبراهيم، على أبو جعفر المنصور لما لهما لدى الإمام من مكانة عظيمة فى قلبه فهما من ذرية على ووالدهما الذى مات فى السجن كان شيخا له ولم يستطع الإمام أن يخفى حزنه وضيقه من مطاردة آل العباس لآل البيت وإن كان لم يعلن عن ثورته وغضبه وإن كان يحاول طوال الوقت الدفاع عن أحبائه .. وهو الأمر الذى لم يخف عن أبو جعفر المنصور عندما علم بواقعة أحد قواده الذى رفض إمامه أن يطارد إبراهيم بن عبد الله بن الحسن وكانت البداية فى مجلس الإمام أبى حنيفة عندما قدم إليه " الحسن بن قحطبة " أحد قواد المنصور وقال له " عملى لا يخفى عليك ، فهل لى من توبة " ؟

فقال له أبو حنيفة " إذا علم الله تعالى . أنك نادم على ما فعلت ، ولو خيرت بين قتل مسلم وقتلك لاخترت قتلك على قتله ، وتجعل على الله عهدا على ألا تعود ، فإن وفيت فهى توبتك " فقال له القائد " وإنى فعلت ذلك وعاهدت الله تعالى ألا أعود إلى قتل مسلم " .

ومرت الأيام وظهر إبراهيم بن عبد الله بن الحسن .. فأصدر المنصور لقائده الأوامر بأن يذهب للقضاء عليه .. فاختار القائد التائب وأسرع لمقابلة الإمام أبو حنيفة الذى قال له " جاء أوان توبتك " ، إن وفيت بما عاهدت فأنت تائب وإلا أخذت بالأول والآخر ، وعاد القائد للمنصور وقال له " لا أسير إلى هذا الوجه " فإن كان لله طاعة فى سلطانك فيما فعلت ، فلى منه أوفر الحظ ، وإن كان معصية فحسبى " .. وغضب المنصور غضبا شديدا مما دفع أشقاء القائد إلى اتهامه بالجنون وغياب العقل " ولم يقتنع المنصور بحجة الجنون فقد كان يرى أمامه رجلا يخاف الله أكثر منه مجنونا .. وبخبرة المنصور وتمرسه على الدسائس والمؤامرات أدرك أن وراء تغير رجله عقلا أوسع وإيمانا وأقوى فسأل رجاله على من يتردد قائده من العلماء والفقهاء ، .... فقالوا له " على أبى

حنيفة النعمان " .. هنا أدرك المنصور من الذى يواجهه فى حقيقة الأمر .. ووضعه أمام عينيه حتى توالت الأحداث التى أثبتت للمنصور ضرورة ترويض ذلك العالم والسيطرة عليه وخاصة بعد أن تكررت ثورات أهل الموصل وما ترتب عليها من فتاوى وقف ضدها أيضا أبو حنيفة .. فقد تكررت ثورات أهل الموصل على حكم آل العباس فأنذرهم الخليفة المنصور فى رسالة تهديدية إذا ما ثاروا عليه مرة أخرى فستستحل دماؤهم .. ومن أجل أن يحصل على مرجعية دينية شرعية لحكمه على أهل الموصل جمع الفقهاء والعلماء ليقروه على ما انتهى إليه ومن بينهم أبو حنيفة وقال لهم " أليس صحيحا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " المؤمنون عند شروطهم " وأهل الموصل قد تعهدوا ألا يخرجوا علىّ.. وقد خرجوا على الوالى وحلت لى دماؤهم " فرد عليه أحد العلماء مستعطفا قائلاً " يدك مبسوطة عليهم وقولك مقبول فيهم ، فإن عفوت فأنت أهل العفو وإن عاقبت فبما يستحقون " وكان قوله يعنى موافقته على ما انتهى إليه المنصور وعندها التفت المنصور إلى أبو حنيفة وقال له " وأنت ما تقول يا شيخ .. ألسنا فى خلافة نبوءة وبيت أمان ؟ " .

فجاء رد أبو حنيفة على غير ما توقع فقال له " إنهم شرطوا لك ما لا يملكون وشرطت عليهم ما ليس لك ، لأن دم المسلم لا يحل إلا بأحد معان ثلاث ..

(النفس بالنفس ، والردة بعد الإيمان ، وزنى المتزوج فإنه يكون فيه الرجم) فإن أخذتهم أخذت بما لا يحل وشرط الله أحق أن توفى به " .

وأدرك المنصور على الفور أنه أمام رجل قوى فى الحق لا يهاب سلطانه ولا سطوته فأمر المنصور أن يتفرقوا جميعا ثم دعاه إليه وقال له " يا شيخ القول ما قلت ، انصرف إلى بلادك ، ولا تفت الناس بما هو شين على إمامك فتبسط أيدى الخوارج " .

وعاد أبو حنيفة إلى موطنه بعد أن عرف المنصور أنه أمام رجل لن يخضع له بالقوة وأن الأمر يحتاج إلى حيلة واسعة ... ورجع ولم تهدأ الأمور أبدا ما بين الخليفة والإمام الذى أصبح تحت أنظار المنصور .. وتحت رقابة قضاته ووزرائه

الذين كانوا ينقلون للمنصور كل ما ينطق به الإمام من أقوال وأفعال لا ترضى الحق وخاصة ما حدث بعد ذلك مع ابن أبى ليلة قاضى الكوفة الذى كان كثيرا ما يصدر أحكاما كان لا يرضى عنها أبو حنيفة لعدم موافقتها للشرع .. ففى إحدى القضايا كان أبو ليلة ينظر فى أمر امرأة مجنونة سبت رجلا وقالت له يا ابن الزانيين ، فأقام عليها أبو ليلة الحد فى المسجد وهى قائمة وحكم بحدين أحدهما لأم الرجل والثانى لأبيه .. فلما عرف أبو حنيفة بأمر الحكم قال .. أخطأ أبو ليلة فى ستة مواضع .. الموضع الأول أنه أقام الحد فى المسجد ، ولا تقام الحدود فى المسجد ، والثانى أنه ضربها قائمة والنساء يضربن قعودا ، والثالث أنه ضرب لأبيه حدا ولأمه حدا ، ولو أن رجلا قذف فى جماعة كان عليه حد واحد ، والرابع أنه جمع بين حدين ولا يجمع بين حدين حتى يخفف أحدهما والخامس أن المجنون ليس عليه حد والسادس أنه حد للأبوين وهما غائبان ولم يحضرا .

ذاع أمر تصحيح أبو حنيفة لخطأ القاضى أبو ليلة الذى كان يشكوه للخليفة المنصور ويجد لديه من حاشيته من يؤكد موقفه ويوغر صدر المنصور على أبو حنيفة الذى اتخذ انتقاد أبى حنيفة للقاضى أبو ليلة الذريعة التى يقضى بها على الإمام وقرر أنه يعاقبه بأن يطلب منه تولى قضاء بغداد وكان يعلم جيدا أنه سيرفض فقد وصله كل ما كان من الإمام ورفضه الدائم لتولى مناصب وخوفه من الله خشية أن يخطئ واضعا الحديث الشريف دائما أمام عينه " قاضيان فى النار وقاض فى الجنة " .. ولذلك كان المنصور متيقنا بأن الإمام سيرفض عرضه مما سيمنحه المبرر لإنزال العقاب به وهو الأمر الذى كان يسعى إليه ..

فأرسل فى طلبه وطلب منه أن يتولى قضاء بغداد حتى يكف عن انتقاد القضاة الذين يخطئون .. فرد عليه الإمام العظيم " لا يصلح للقضاء إلا رجل يكون له نفس يحكم بها عليك وعلى ولدك وعلى قوادك ، وليست تلك النفس فى " فقال له المنصور " فلم لا تقبل صلتى " ؟ فرد الإمام " ما وصلنى أمير المؤمنين بشىء من ماله فرددته إنما وصلنى أمير المؤمنين من بيت مال المسلمين

ولاحق لى فى بيت مالهم .. إنى لست ممن يقاتل من ورائهم فآخذ ما يأخذ المقاتل ، ولست من ولدانهم فآخذ ما يأخذه الولدان ، ولست من فقرائهم فآخذ ما يأخذ الفقراء " .

عند هذا الحد نفدت أسلحة المنصور كلها من عروض السلطة والجاه والمال وهى الأسلحة التى كانت لا تخيب أبدا مع معظم الناس ولكنها تحولت إلى قبض الريح أمام عظمة وعلم ومهابة الإمام أبى حنيفة وأمام تقواه وخشوعه وخوفه من الله وهو الأمر الذى دفع المنصور إلى استخدام نفوذه وجبروته .. فحاول معه عدة مرات حتى أخرج الخليفة آخر ما فى جعبته وأقسم على الإمام بأن يقبل ما عرضه عليه .. وبهدوء وثقة فى الله رد أبو حنيفة القسم الملكى .. بقسم الرجل العابد الخاشع .. فأقسم بأن لا يقبل ما عرض عليه وقال " لو هددتنى أن تغرقنى فى الفرات أو أن آلى الحكم .. لاخترت أن أغرق .. لك حاشية يحتاجون إلى من يكرمهم لك " .

أدرك المنصور أنه تم دفع الأمور إلى منتهاها وأن اللحظة التى كان ينتظرها قد حانت .. فأحل العقاب على الإمام وأمر بسجنه وتعذيبه وضربه يوميا عشرة أسواط .. ونفذ الحكم.

وسجن أبو حنيفة ليلتقى فى محبسه عنان بن داود اليهودى الثائر على قومه المهدر دمه .. الكافر لديهم لخروجه على عقائد اليهود .

واستمع الإمام إلى عنان وعلم منه أنه حانق على ما وقع فيه قومه من أخطاء خرجوا بها عن الإيمان الصحيح لما أنزل على اليهود وعاب عليهم تمسكهم بالتلمود الكتاب الموضوع لديهم والذى يحتل مكانة مقدسة تعادل مكانة التوراة وعلى انحرافهم فى العبادات وأنه عندما دعاهم للتخلص من كل هذه المغالطات والعودة إلى الدين القويم والتمسك بالتوراة ونبذ ماعداها ، اتهموه بالكفر وشكوه للخليفة وطلبوا منه معاقبته بالموت جزاء كفره ..

أدرك الإمام أبو حنيفة وهو يستمع إليه وقبل أن يسترسل فى شرح ما خالف فيه قومه أن عنان قد تأثر بالمعتزلة وهم كانوا أصحاب مدارس فكرية منتشرة

فى أنحاء العراق كله والعالم الإسلامى .. وهى واحدة من الفرق الإسلامية التى انتهجت وسائل عقائدية اعتمدت على العقل والجدل وتأثرت بالفلسفة اليونانية ويقال إنها سميت بهذا الاسم بعد واقعة حدثت فى مسجد البصرة .. وكان الحسن البصرى يقيم مجلسا للعلم حضره تلميذه واصل بن عطاء وسأل فيه رجل عن رأى الدين فى مرتكب الكبيرة فأجابه الحسن بأنه منافق واعترض واصل على هذا الحكم وقال " إن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن مطلقا ولا كافر مطلقا وإنما هو فى منزلة المنزلتين " ولم يمر هذا الخلاف الفقهى مرورا عابرا وإنما جعل واصل بن عطاء يعيد التفكير فخرج من حلقة الدرس واعتزلها واتخذ لنفسه مجلسا آخر فى المسجد ليكون حلقة جديدة خاصة به اتبعه فيها التلاميذ الذين وافقوه الرأى والكثير من المريدين والأنصار لتنشأ فى هذه الحلقة فرقة المعتزلة برئاسة واصل بن عطاء، بعد أن قال الحسن البصرى "اعتزلنا واصل " .

وهناك رأى ثان يرجح أن تسميتهم ترجع إلى أن الاعتزال كان سياسيا وأن المعتزلة من شيعة على رضى الله عنه وأنهم اعتزلوا الحسن بن على عندما تنازل لمعاوية أو أنهم وقفوا موقف الحياد بين شيعة على ومعاوية فاعتزلوا الفرقتين ولكن من المؤكد أن الفرقة ظهرت وبرزت كفرقة فكرية على يد واصل بن عطاء الغزال فى أواخر العصر الأموى وازدهرت فى العصر العباسى وتدور مبادئ وأفكار المعتزلة والتى تأثر بها عنان فى فرقته التى عرفت " بالقرائين " بأن الإنسان مختار بشكل مطلق فى كل ما يفعل فهو يخلق أفعاله بنفسه والاعتماد على العقل كليا فى الاستدلال لعقائدهم حتى أنهم قالوا " المعارف كلها معقولة بالعقل ، واجبة بنظر العقل ، وشكر المنعم واجب قبل ورود السمع أى قبل إرسال الرسل ، والحسن والقبح صفتان ذاتيتان للحسن والقبح " وأنهم كانوا يعتمدون فى عقيدتهم على كتاب الله وحده ولا يعتدون بالحديث الشريف ويعتبرون أن المرجع الوحيد لديهم هو " القرآن الكريم " فقط حتى أن الجاحظ وهو أحد كبار علماء المعتزلة قال فى رجال الفقه والحديث " وأصحاب الحديث

هم العوام ، هم الذين يقلدون ولا يحصلون ولا يتخيرون والتقليد مرغوب عنه فى حجة العقل منهى عنه فى القرآن " .. ولم يكتف بذلك بل وصفهم بقوله " وأما قولهم : النساك والعباد منا ، فعباد الخوارج وحدهم أكثر عددا من عبادهم على قلة عدد الخوارج فى جنب عددهم ، على أنهم أصحاب نية وأطيب طعمة وأبعد من التكسب ، وأصدق ورعا وأقل رأياً ، وأدوم طريقة ، وأبذل للمهجة ، وأقل جمعا ومنعا وأظهر زهدا وجهدا "

وبدا واضحا تأثر عنان بن داود بهذه الفرقة بعد مجاهرته بأنه لا يعترف إلا بتوراة موسى عليه السلام وحدها رافضا تماما للتلمود وأحباره الذين كانوا يرون أن الشريعة الشفوية لديهم مصدرها الوحى الإلهى وهو الأمر الذى رفضه عنان الذى كان يدعو إلى الاحتكام إلى العقل والعودة إلى النص المقدس .. مستخدما طريقة القياس التى استلهمها من الفقه الإسلامى .

وبعد أن استمع أبو حنيفة إلى عنان ويؤكد هذا اللقاء ما نقله المؤرخ (ليون نيموى) ونسيم رجوان فى كتابه "موجز تاريخ العراق " وما ذكر فى " رحلة بنيامين " أن الإمام أبا حنيفة عندما التقى عنان فى السجن واستمع إليه فأشار عليه أن يخاطب الخليفة أبو جعفر المنصور ويشرح له الأمر بأنه ليس بمتمرد ولا كافر كما ادعى عليه علماء اليهود وأنه ليس بثائر على رأس الجالوت وإنما هو صاحب دين قائم بنفسه ولا علاقة له بدين اليهود وأنه يخالفهم فى أمور تقربه من الإسلام وتبعده عنهم وأن من حق جماعته التى ترأسها قبل دخوله السجن أن تتمتع بحرية المعتقد شأن سائر أهل الذمة فى ملك المنصور وهو بهذا لم يرتد عن اليهودية وإنما هو باحث ومنقب عن أصلها التوحيدى وهو صاحب مذهب فيها .

ونجحت نصيحة الإمام أبى حنيفة فى إنقاذ رقبة " عنان " من الموت وفى جعل الخليفة ينظر فى أمره ويعفو عنه .. فعندما إلتقى عنان الخليفة سجد أمامه وقال له سيدى هل أنت ملكت أخى على دين واحد أم على ديانتين ؟ فأجابه المنصور .. على دين واحد فقال عنان .. ولكن أنا وأخى على ديانتين

مختلفتين!!.

خرج عنان حرا .. ليواجه علماء وأحبار اليهود بمذهب القرائين " ... والكلمة مأخوذة من الفعل العبرى " قرا " بمعنى " قرأ " وجاءت تسميتهم بهذا الاسم دلالة على إيمانهم بالتوراة (المقرأ) فقط وعدم إيمانهم بالشريعة الشفوية .. وإن كان مذهبهم يسمى " العنانية " نسبة إلى مؤسسه عنان فى القرن الثامن الميلادى ولم تطلق عليهم تسمية القرائين إلا بعد ذلك بعدة سنوات وتحديدا فى النصف الأول من القرن التاسع الميلادى بعد انتشار مذهبهم.

كان خروج عنان من السجن مقدمة لبداية مولد مذهب له أفكار ومعتقدات مختلفة عما كان سائدا لدى اليهود من قبل ليصبح من بعد عنان هناك زعيمان لليهود رأس جالوت ربانى وعنان رأس جالوت لطائفته الجديدة والتى انضم إليها الكثيرون من الأتباع والمريدين الذين وافقوا عنان وتحول الأمر إلى صراع ما بين دينين يكفر كل منهما الآخر بقوة .

وتفرغ عنان لصياغة مذهبه وجعل من يؤمن بقوله ويتبعه .. لابد أن يعتقد بستة أركان للإيمان .. هى الاعتقاد فى الألوهية ، وأن الله واحد لا إله غيره خالق السموات والأرض لا أول له ولا آخر ولا غالب له ولا قاهر .

والاعتقاد برسالة النبى موسى عليه السلام ويعتقد القراءون بأن موسى نبى ورسول من أكمل النوع الإنسانى خلقا وذهنا وعقلا وهو قدوة وإمام لأول الأنبياء وآخرهم فى التوراة وأن نبوته ومكانته عند الرب ومعجزاته ونزول الوصايا عليه جعلته فى مكانة عالية ورفيعة.

ويعتقد القراءون بسائر أنبياء اليهود فيرون أنهم من نسل إبراهيم عليه السلام إسحق ويعقوب وموسى ويوشع وصموئيل وعاموسى وعويديا ويونان وناحوم وحبقوق وصفينا وحجاى وزكريا وملاضى وميخا جاء ذكرهم فى التوراة.

ويأتى الركن الرابع المخصص للتوراة الشريعة العظيمة التى أهداها الله سبحانه وتعالى لبنى إسرائيل والتى لم يقتصر تأثيرها عليهم فقط وإنما امتدت

لتشمل باقى الأمم الذين استمدوا قوانينهم من نصوصها .

وتحتل القبلة " الركن الخامس " من قواعد الإيمان لديهم وموقعها بيت المقدس والتى يعتقدون أن الله سبحانه وتعالى قد اختارها لتكون قبلتهم لحلول نوره المعظم عليها ولشموله لها برعايتها وكانوا يتوجهون إليها فى صلاتهم ودعائهم وعبادتهم.

ويأتى الركن السادس فى الإيمان لديهم ليتحدث عن يوم القيامة أو البعث والحساب والعقاب ..

ووضع عنان أصولا للفقه القرائى كان يعتمد على ثلاثة محاور أساسية هى النص والقياس والإجماع ويبدو تأثره بالإسلام شديد الوضوح فى اعتماده على هذه الأصول فالنص قصد به التوراة وحدها . والقياس هو استخدام الدليل العقلى ليثبت به العالم الحكم للواقعة التى لم يرد دليل على حكمها بعد مساواة الفرع لأصله فى علة الحكم ، والإجماع ويقصد به فى الفقه القرائى العادات والأوامر التى لم يرد فيها نص أو قياس على نص وإنما هى أمور وجدها العلماء ضرورية للأخذ بها فأوجبوها على أتباعهم واتفقت الآراء بالإجماع على تناولها .

ويلخص د . عبد الوهاب المسيرى معتقدات وأفكار القرائين فى موسوعة اليهود واليهودية بأن تصورهم للإله قد تم تطهيره تماما من أى بقايا وثنية أو طبائع بشرية ، فالإله هو خالق السموات والأرض من العدم وهو الخالق الذى لم يخلقه أحد ، ولا شكل له ولا مثيل له ، إله واحد أرسل نبيه موسى وأوحى إليه التوراة التى تنقل الحق الكامل الذى لا يمكن تغييره أو تعديله ، وخصوصًا من خلال العقيدة الشفوية وعلى المؤمن أن يعرف المعنى الحقيقى للتوراة ، وقد أرسل الإله الوحى إلى أنبياء آخرين ولكن درجة النبوة لديهم أقل منها عند موسى وسيبعث الإله الموتى ويحاسبهم يوم القيامة " .

وخالف عنان بن داود أحبار وعلماء " الربانيين " مخالفة واضحة وصريحة فى كثير من أمور الدين والفقه والتى جعلت التقارب بينهما شديد الصعوبة رغم

التقائهما فى نقطة واحدة وهى " التوراة " التى يؤمن الاثنان بأنها أوحيت وكتبت وشكلت على يد موسى عليه السلام .. فى حين أن عنان كان يؤمن برسالة عيسى عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وسلم واعتمد التقويم القمرى للشهور بدلا من التقويم الشمسى الذى يعتمده اليهود جميعا لحساب الشهور وخالف عنان الربانيين فى كثير من الأمور التى باعدت فيما بينهما فكان متشددا فى أمور الطهارة والنجاسة وكان يلزم من يريد تعلم التوراة أو الصلاة " بأن يخلع نعليه ويغسل يديه وقدميه ويلتزم الطهارة " وجعل الصلاة فرضا واجبا على كل ذكر ابتداء من عشر سنوات وعلى النساء أيضا كما جعل وجوب تأدية صلاة الشكر لكل من أنقذه الله من مصيبة أو مَنَّ عليه بالنعمة والفضل وهو ما يتشابه مع " سجدة الشكر " لدى المسلمين .

واكتفى عنان بأداء صلاة (شحاريت) أى الشروق وصلاة المساء (عرابيت) تاركا صلاة الأصيل التى كان يؤديها الربانيون وكان عنان يرى أن أداء صلاتى الشروق والأصيل تؤدى فى وقت أداء القرابين .. ويتفق القراءون والربانيون فى ارتداء شال الصلاة (طاليت) ويكون عادة من الحرير الأبيض أو الصوف وفى كل زاوية من زواياه حلية تسمى (الصيصيت) مؤلفة من ستمائة وثلاثة عشر هدباً تمثل فرائض التوراة والشال يرتديه الرجال فقط .

وخالف القراءون الربانيون فى ارتداء تمائم الصلاة (تفيلين) التى يحرص الربانيون على ارتدائها أثناء أداء الصلاة (وتفيلين تعنى ربط) .. وتتكون من صندوقين صغيرين من الجلد الأسود يثبتهما اليهودى البالغ بشرائط من الجلد على ذراعه اليسرى مقابل القلب وعلى جبهته مقابل المخ وذلك أثناء أداء الصلوات الصباحية كل يوم ماعدا أيام السبت والأعياد ويحتوى كل من الصندوقين على فقرات من التوراة .

وجاء حرص الربانيين على ارتدائها لفهمهم وتفسيرهم الحرفى الظاهرى لما جاء فى سفر التثنية " واربطهما علامة على يدك ولتكن عصائب بين عينيك " وهو ما رفضه القراءون ورفضوا معه كل التمائم والإشارات التى يتمسك بها

الربانيون فى أداء الصلاة واعتبارها إشارات رمزية فى التوراة ولا تعنى تحولها إلى أشياء مادية .. ورفضوا أيضا الـ (مزوزا) وهى تميمة توضع على أبواب المنزل وتعنى (عضادة) وتأخذ شكل ورقة مستطيلة الشكل يكتب على وجه منها جمل من العهد القديم وعلى الجانب الآخر كلمة (شداى) التى تعنى اسم الله بالعبرية واعتبر القراءون أن تنفيذ مثل هذه التعاليم نوع من أنواع الخرافات التى يجب التخلص منها .

واصل عنان مجالسه وندواته التى كان يدعو فيها إلى أفكاره وتعاليمه متحدياً حاخامات الربانيين الذين حاولوا محاربته بكل الطرق وقيل إنه تعرض لعدة محاولات للقتل لم تستطع كلها أن تثنيه عن مذهبه الجديد الذى كان يختلف اختلافا جذريا عن ما استقر عليه الربانيون وخاصة فى أمور الزواج الذى أصبح واجبا لدى القرائين إذا كان الشخص قادرا ويعد عدم الإقبال على الزواج معصية والزواج لديهم يصبح صحيحا ويتحقق بثلاثة شروط هى المهر والوثيقة والقبول الذى يعنى موافقة الرجل والمرأة على أحكام الزواج حتى يصبح زواجا صحيحا وهو الأمر الذى لا يعتبره الربانيون شرطا أساسيا لصحة الزواج فهم يشترطون لإتمام الزواج المال والوثيقة والجماع .. ولم يأتوا على ذكر القبول وهو الشرط الذى تم توضيحه بشكل كبير فى كتاب " شعار الخضر " الذى شرح شريعة القرائين بالتفصيل فيقول:

" القبول لابد منه وإلا فلا عقد ولا زوجية ، وإذا كان لابد من القبول فهو يقتضى أن يكونا مميزين أى بالغين فإن القبول فرع من التمييز ، وأجمع العلماء كلهم على أن قبول الرجل محله بلوغه ، وأن الصغير عقده لغو كأن لم يكن . أما المرأة فإذا بلغت فمنهم من قال إن قبولها يتعلق بها وحدها ومنهم من قال بأبيها دونها ومنهم من قال بهما جميعا فإذا كانت صغيرة فأبوها وليها "

وخالف عنان الربانيين فى مسألة تعدد الزوجات .. وأباح لأتباعه التعدد واشترط العدل فيما بينهن وجاء فى أحكامهم الشرعية .

" إنما يجوز التزوج على المرأة إذا كان الرجل فى سعة من الرزق يستطيع

القيام بمعيشتهما معا ومنفردتين بغير تضييق وكان للتزوج مع ذلك مقتضى وأن يكون العدل ميسورا بينهما فى كل شىء .

التف الأتباع حول عنان حتى أنهم أطلقوا عليه لقب الأمير إمام المرشدين وخصصوا له دعاء كانوا يستقبلونه به " اللهم ارحم الأمير عنان بن داود الولى الذى أبان طريق التوراة وأنار قلوب القرائين وهداهم وأرشدهم إلى طريق الحق، اللهم أنزله منزلا طيبا وميسرا فى الدرجات السبع الصالحين الذين مأواهم الجنة "

كانت الهتافات التى يستقبله بها أتباعه دليلا على مدى قوة عنان وتأثيره فهو لم تكن تنقصه المعرفة ولا العلم فلقد درس على يد كبار علماء اليهود الذين كانت لهم شهرتهم .. كما كان نسبه كسليل لآل داود له دور كبير فى تعظيم مكانته لدى اليهود والتى اكتسبها بعلمه .. فهو لم يدع أبدا بأنه نبى أو رسول أو حتى صاحب كرامات .. ولذلك ارتفعت مكانته بين أتباعه كعالم، فهو دائما كان لديه قول مقنع فيما يختلف فيه مع الربانيين فى تعاليم الدين فلقد اعتبر عنان أن سلوك الربانيين من الجلوس فى المقابر والتوسل إلى الأموات لقضاء الحاجات كفر.. كما جاء هجوم عنان المباشر والحاد على حاخامات الربانيين ليزيد من عدائهم عليه .. فهو كان دائم الهجوم على التلمود الذى درسه بشكل عميق وهاجم الفكر الحلولى الذى قدمه التلمود والذى يقول " إن الإله بشكل دائم يحل فى الحاخامات .. مما منحهم سلطانا هائلا على أبناء رعيتهم فهم ليسوا ممثلين ومنفذين لتعاليم الإله فقط بل هم آلهة يتحركون بين البشر .. فكان بذلك لا ينتقد الدين فقط بل كان يسعى من وجهة نظرهم إلى تقويض سلطانهم الذى اهتز كثيرا بفضل الدقة الشديدة التى كان يشرح بها عنان مسائل وقضايا بشكل كامل لم يوفره أحبار الربانيين من قبل .. وكان أكثر ما يميز هذه المسائل تأثرها الواضح بالإسلام ففى مسألة شروط التوبة .. جعل لها خمسة شروط: أن لا يرجع الإنسان إلى ما يغضب الله مستدلا بذلك على ما جاء فى سفر أشعيا " يترك الشرير سيره، ورجل السوء نواياه ، وليتب إلى الله ،

فهو يرحمه وإلى إلهنا فهو كثير العفو " .. والشرط الثانى .. أن يعاهد الله على عدم العودة إلى ارتكاب الخطايا والذنوب وجاء من التوراة ما يثبت مقولته فى " الأمثال " من يداوى ذنوبه لا يفلح وأما من يعترف بها ، ويتوب عنها فإنه يرحم " والشرط الثالث أن يشعر بالندم فى قلبه على ما فعل والرابع أن يطلب الغفران من الله تعالى .. فى صلاته وأثناء صيامه ويأتى الشرط الخامس والأخير ليؤكد أن طالب التوبة لابد أن يسارع إليها برغبة ومقدرة أى أن يكون ما زال قادرا على المعصية وارتكاب الذنوب ويقرر الإقلاع عنها لا أن تكون التوبة بسبب عجزه أو عدم قدرته على ارتكاب المعصية .

وتطرق عنان للمحارم فى الزواج وهو أمر كان يثير الكثير من الخلافات بسبب تفسير أحكام التوراة .. فقال إن الزوجين يصبحان كالجسد الواحد وعليه فإخوة الزوج وأخواته مثل إخوة الزوجة وأخواتها .. وحرم بنت الأخ وبنت الأخت وكذلك لا يجوز للمرأة أن تتزوج من عمها أو خالها . وحرموا بنت زوجة الأب . والأخت فى الرضاع وهى أمور أباحها الربانيون لعدم وجود تحريم لها فى التلمود ولم يرد بها تحريم فى التوراة وإنما توصل إليها القراءون من القياس .

ورفض عنان فرض زواج الأخ بزوجة أخيه المتوفى رغم ما جاء فى التوراة فى سفر التثنية " إذا سكن إخوة معا ، ومات واحد منهم وليس له ولد ، فلا تصير امرأة الميت إلى خارج لرجل أجنبى . أخو زوجها يدخل عليها ، ويتخذها لنفسه زوجة ، ويقوم لها بواجب أخى الزوج " وفسر ما جاء فى التوراة أن المقصود به بالإخوة هم الأقرباء من العائلة وليسوا بالضرورة أشقاء الزوج .

واختلف عنان مع الربانيين فى مسألة يوم السبت وكان أكثر تشددا منهم فى أحكام ذلك اليوم المقدس .. فمنع عنان العمل فيه منعا باتا .. وحتى العلاج من الأمراض والتداوى والختان والخروج من باب المنزل فى قرية أو بلدة أو مدينة يسكنها غير اليهود ومنع تناول الطعام وهو ساخن لأنه من يتناوله سيضطر إلى العمل على تسخينه أو إشعال النيران والشموع أو طهى الطعام حتى لو قام به

الخدم فى منزل اليهودى وهو الأمر الذى كان يقره الربانيون .

وكانت مسألة التقويم وتحديد موعد بداية الشهر أهم نقاط الخلاف ما بين القرائين والربانيين فكان بداية الشهر لدى القرائين يوما محددا معتمدين على التقويم القمرى مثلما يأخذ المسلمون ولا يهتمون إذا ما جاء الشهر كاملا أو ناقصا بعكس ما اعتمد عليه الربانيون من تحديد الشهر بالحساب.

وازداد الخلاف ما بين الفريقين كلما تعمق عنان فى البحث والاجتهاد والتفسير المختلف للتوراة فقد كان القراءون يرون أن باب الاجتهاد ما زال مفتوحا فى حين يرفض الربانيون هذا الأمر تماما ، وهو ما دفع القرائين إلى وضع عدة قواعد صارمة لمن يتبعهم منها الإقلال من تناول اللحوم والخمور حزنا على تدمير بيت المقدس ، كما كانت لهم قواعد فى مسألة الختان المتفق عليها ما بين الفريقين وإن كان القراءون يرون إتمام عملية الختان بالمقص وليس بالسكين وإذا حل موعد الختان فى يوم السبت فإنه يؤجل حتى ينتهى اليوم المقدس ، ونهوا تماما عن إقامة العلاقة الجنسية بين الزوج والزوجة فى يوم السبت فى حين أوجبه الربانيون تبركا بهذا اليوم .. كما حظر القراءون إقامة علاقة جنسية بين الزوجين إذا كانت الزوجة حاملاً حتى شهرها الثالث .. لأن " الجماع " من وجهة نظرهم الغرض الأول منه هو الإنجاب والتناسل ولا فائدة منه بعد تأكد الحمل . كما حظروا تماما تعلم الفلك والتنجيم وهو العلم الذى كان يبرع فيه اليهود وكان من بينهم العرافون والمنجمون والسحرة الأمر الذى رفضه عنان تماما وحاربه بكل قوة .

وتزايد نفوذ " عنان " على أتباعه واجتذب الكثير من اليهود بقوة منطقه وتبحره فى التلمود فقد كان كثيرا ما يستعين بالتلمود لتفنيده وهدمه وكانت آراؤه دائما محل إعجاب من أتباعه ومصدرا للخوف والقلق للربانيين الذين كانوا يخشونه لمعرفتهم بعلمه الواسع فقد تعلم اليهودية وشريعتها وكتبها على يد أحد كبار علماء اليهود وهو (يهودا) الذى كان رئيسا لمدرسة سورا وبعد تخرجه كان علماء اليهود من الربانيين يتبعونه ويعترفون به كعالم له مكانته

الجليلة بينهم .. ولذلك كانت معارضته دائما مغامرة محفوفة بالخطر ورغم ذلك تصدى له اثنان من كبار علماء اليهود وهما " الجاؤون راب يهودای سجهی ناهور» رئيس المعهد الدينى " يشيفا " والجاؤون راب دوداى " رئيس المعهد بوبمادينا وكان الاثنان وتلاميذهما يحاربونه بكل قوة حتى تحول الصراع ما بين الفريقين إلى حرب مشتعلة انتهت بأن كفر الربانيون " عنان " وأتباعه ومنعوا الزواج منهم والتعامل معهم وهو الأمر الذى استقر لدى القرائين وأعلن كل طرف أن الطرف الآخر نجس ومحروم من رحمة الله ... ومنع كل من الفريقين الصلاة فى معبد الآخر وأطلق الربانيون على القرائين أوصافا حادة فسموهم " مينيم " أى الزنادقة أو الكفرة وكذلك " أبيقوريم " أى الأبيقوريين نسبة إلى المدرسة الفلسفية اليونانية الوثنية التى كانت تقرن صورتها لدى اليهود بالانحلال والفساد والكفر .. وحرم الربانيون أن يقرأوا التوراة من نسخة كتبها أحد القرائين ولو كانت صحيحة على اعتبار أنهم غير طاهرين ولا ينتمون إلى شعب الله المختار ولم يكتفوا بذلك بل حاولوا تشويه صورة عنان بن داود مؤسس المذهب فقالوا عنه إن خروجه عليهم لم يكن إلا بدافع الحسد والغل لاختيارهم شقيقه لمنصب رأس الجالوت ونشروا قولهم عنه إنه «حسد وقذر يملأ قلبه» مما جعله يضل اليهود وينفرهم من أقوال الحكماء التى أخذوها من الأنبياء ورد عليهم القراءون بالمثل .. فمنعوا الزواج منهم وهاجموهم بشدة فى معابدهم وكانوا يبتكرون فى السخرية منهم ويستخرجون نصوصا من التوراة يفسرونها على أنها تؤكد كفر ومروق الربانيين فأخذوا النص " ثم خرج الملاك الذى كلمنى ، وقال لى ارفع عينيك وانظر ما هذا الخارج فقلت ما هو فقال هذه هى الإيفة الخارجة ثم قال هذه عينهم فى كل الأرض وإذا بوزنة رصاص رفعت ، وكانت امرأة جالسة فى وسط الإيفة ، فقال هذه هى الشر ، فطرحها إلى وسط الإيفة وطرح ثقل الرصاص على فمها ، ورفعت عينى ونظرت ، وإذا بامرأتين خرجتا والريح فى أجنحتهما ، ولهما أجنحة كأجنحة اللقلق فرفعتا الإيفة بين الأرض والسماء ، فقلت للملاك المتكلم

معى إلى أين هما ذاهبتان بالإيفة فقال لى لتتبينا لها بين فى أرض شنعار، وإذا تهيأ تقر هناك على قاعدتها)

وفسر القراءون النص ليخدم مصالحهم ويقوى قضيتهم الأساسية وهى حربهم الشرسة ضد التلمود فقالوا : إن هذه الإيفة " التى جلس فيه الخبث فى صورة امرأة على فمها الرصاص بأنه الشريعة التلمودية ، وأن المرأتين اللتين تطيران بالخبث وتنشرانه وتثبتانه هما أكاديميتا سورا وبومبادينا وانتشر ذلك التفسير من معابد القرائين ليشار بعد ذلك إلى المدرستين اللتين تعدان أحد أهم أعمدة الحفاظ على الديانة اليهودية " بالمرأتين " .

وكان عنان بن داود يطمح لأن يصل فكره إلى كل بقاع الأرض التى يسكنها اليهود فهو كزعيم ومؤسس " للعنانية " أو لفرقة القرائين كان يشعر بأن لديه واجبا دينيا مهما لتصحيح عقيدة اليهود كما رآها فلم يكتف بخوض الصراع مع "الربانيين " فى العراق وحدها وإنما أرسل الدعاة إلى فلسطين لنشر دعوته فيها وهو الأمر الذى نجح فيه إلى حد بعيد فانضم إلى دعوته كثير من يهود فلسطين الذين كان بعضهم يعتنق أصل فكر عنان الذى يعود إلى الاعتراف بالتوراة وحدها كمصدر للشريعة اليهودية وانتشرت كتابات عنان بينهم وكانت فى تعاليم اليهودية ومبادئها منها (سفر هامتسفوت) الذى كتبه بالآرامية وكتاب (الأوامر والنواهى) وكان كتابه (سفر هامتسفوت) أو الفرائض من أكثر الكتب انتشاراً بين طائفة القرائين الذى ذكر فيه أحكام الفقه اليهودى معتمدا فيه على التوراة وحدها واستخدم فيه "القياس " الذى توسع فى استخدامه وبجانب كتبه ورسائله انتشرت مقولته الشهيرة " ابحثوا فى التوراة باجتهاد ، ولا تعتمدوا على رأى" .

وهى الكلمات التى اختصرت الكثير من فكر وتعاليم القرائين والتى سمحت بالاجتهاد وعدم الاعتماد على " التلمود " بل وتنحيته جانبا والتخلص منه .. ولم يكتف عنان برسله ورسائله إلى فلسطين بل سافر

إليها هو بنفسه ليكثر أتباعه وتتحول طائفته إلى ثانية الفرق اليهودية من حيث أتباعها لتحتل بعد ذلك أهمية كبرى فى تاريخ الفكر الدينى اليهودى عامة . ومات عنان بن داود وخلفه ابنه شاؤول فى رئاسة أمور الطائفة ثم يوشياهو بن شاؤول اللذان حاولا الاجتهاد وتنظيم أمور الطائفة التى اختلفت فيما بينها فى كثير من الأمور بعد موت عنان ونزعوا إلى كثير من التشدد وخاصة فى أمور الطهارة وأحكام يوم السبت إلى درجة أنهم حرموا فى يوم السبت تقطيع الخبز إلى شرائح ، وأن كل بيت تصبح فيه نجاسة يصبح البيت بأكمله نجسا ، وكانوا يرتدون يوم السبت قميصا واحدا فقط .

ولم تزعج الخلافات بين طائفة القرائين علماءها بل أرجعوا ذلك إلى أن الخلاف أمر طبيعى بعد أن فتح القراءون الباب أمام الاجتهاد والاختلاف فى الرأى وكانوا دائما ما يعودون إلى ترديد مقولة عنان الشهيرة "ابحثوا ودققوا فى التوراة" ولا تعتمدوا على رأى " فأصبحوا يجتهدون فى كل شىء .

ولم يختف ظل عنان بن داود من طائفة القرائين بموته .. فالقراءون رأوا فيه وفى ذريته حتى القرن الثامن عشر سليلا لآل داود وكانت لهم الزعامة فى أورشليم التى تحولت إلى مركز القرائين فى النصف الثانى من القرن التاسع الذى لم يكد ينتهى ويبدأ القرن العاشر حتى شهد حالة تشتت للقرائين وانتشروا فى كل بلدان العالم الإسلامى وهو نفس الوقت الذى شهد مولد بنيامين بن موسى النهاوندى والذى يعد أحد مؤسسى ومنظمى المذهب القرائى بعد عنان بن داود وكان النهاوندى يعمل قاضيا لليهود فى نهاوند فى إيران وعرف عنه علمه الواسع ودراسته للقرآن الكريم وكان متحمسا بشدة للمذهب القرائى حتى أنه ينسب إطلاق مصطلح " قرائى " على أتباع عنان بن داود .. وواصل النهاوندى تحديد ووضع قواعد المذهب القرائى واستكمال وتوضيح الكثير من النقاط التى تحدث عنها عنان وكان للنهاوندى إسهام هائل فى المذهب القرائى واهتم بصفة خاصة بمحاولة

تنقية الفكر الدينى من تشبيه الإله بصفات بشرية كما هو مستقر ومعروف لدى الربانيين وهو الأمر الذى لم يستسغه النهاوندى كما قال إن التوراة لم توح إلى موسى عليه السلام مباشرة وإنما أوحيت إليه عن طريق ملاك وأن الله لم يخلق العالم مباشرة وإنما الخلق تم من خلال ملاك وقال إن التوراة مليئة بالأخطاء وأنه يجب حذف الكثير منها وتصحيحها وقام بتصحيح بعض العبارات مثل عبارة (وكان كل الشعب يرون الرعود) فقال إن صحيح العبارة هى (وكان كل الشعب يسمعون الرعود) لأن الرعود تسمع ولا ترى كما أنه أجاز أن يأكل اليهودى ما يصنعه غير اليهودى وأن يعمل سبعة أيام حتى يوم السبت مخالفا بذلك عنان الذى كان متشددا للغاية فى أمر السبت.

ومع تزايد نشاط القرائين واستقرارهم فى أورشليم وانتشارهم فى باقى الأقطار الإسلامية نشط علماؤهم فى البحث والاطلاع وتهذيب الفكر القرائى .. فظهر فى النصف الأول من القرن العاشر الميلادى العالم القرائى أبو يوسف يعقوب القرقسانى وكان عالما متمكنا من علوم التوراة ودرس حياة الأنبياء والمسيحية والإسلام .. وكان يدعو إلى تحكيم العقل وله مقولة مشهورة " إن القرائين يصلون إلى آرائهم الدينية عن طريق العقل ، ولذا فإن الاختلاف بينهم أمر طبيعى . أما الحاخاميون فإنهم يدعون أن آراءهم أى الشريعة الشفوية مصدرها الوحى الإلهى . فإن كان هذا هو الأمر حقا فلا مجال للاختلاف فى الرأى بينهم . ومن ثم فإن وجود مثل هذه الاختلافات يدحض ادعاءاتهم التى تنسب الشريعة الشفوية لأصل إلهى " .. ووضع القرقسانى أفكاره فى عدد من الكتب من أهمها «الأنوار والمراتب» أما الكتاب الثانى فهو " الرياض والحدائق" ومع ظهور المفكرين قويت حركتهم ونشط مذهبهم فى العديد من البلدان التى انطلقوا إليها بعد تمركزهم فى أورشليم التى شهدت ازدهارهم وتوسعهم ونشاطهم الذى اجتذب الكثيرين إليهم حتى أنهم استطاعوا أن يزيحوا اليهودية الحاخامية

أو الربانية إلى حد كبير وأجبروا الطائفة الربانية وزعيمها إلى ترك أورشليم والهجرة إلى رام الله ...

ونشط كبار وعلماء القرائين فى كتابة الشروحات والتفسيرات التى توضح فكر القرائين مثل سليمان داود بن داود بن إبراهيم الفاسى الذى وضع قاموسا أسماه (جامع الألفاظ) يشرح فيه ألفاظ الكتاب المقدس العبرى باللغة العربية وكتب أيضا داود بن بوعز الملقب بالرئيس كتاب" الأصول " والذى عنى بتفسير أجزاء من التوراة باللغة العبرية وفى القرن الحادى عشر ظهر طربيا بن موسى ويهوذا هاواسى مؤلف كتاب" العطور " الذى تضمن أهم شروح القرائين الأوائل وكان لهما الفضل فى نشر المذهب القرائى فى بعض البلدان الأوربية وانتشر المذهب القرائى بفضل نشاط العلماء والمفكرين القرائين ويعد القرنان الحادى عشر والثانى عشر أكثر السنوات ازدهارا لهم وخاصة فى مصر التى وفدوا إليها ونشروا فيها مذهبهم فى ظل الخلافة الفاطمية، حتى أن أحدهم وهو الحسن بن أبى سعيد بن سهل بن مصلح النسترى أصبح وزيرا للخليفة المستنصر الفاطمى ومبرز منهم أطباء فكان أبو البيان بن المدود طبيبا لصلاح الدين الأبوى وسديد الدين أبو الفضل بن داود أبى البيان طبيب الملك العادل ..

وأصبح لأتباع المذهب القرائى فى مصر طائفة كبيرة العدد ولها مسئول عنها لقب بالأمير وكان أشهرهم أبو الفضل سلومون كما وعاش فى مصر العديد من الشعراء والكتاب والمفكرين القرائين وكانت لهم مدارس ومعابد وعاشوا فى مصر حتى غادرها معظمهم فى عام ١٩٥٧.

عاش المذهب القرائى مئات السنين بعد أن ابتدعه أمير المرشدين عنان بن داود وتحدى به سلطة الربانيين واجتذب إلى صفوفه الآلاف واستطاع أن يضع الأساس القوى لمذهب عاش من بعده سنوات طويلة وما زال أتباعه حتى الآن منتشرين فى العالم وبعضهم فى إسرائيل وإن كان عددهم لا يزيد على ٢٠ ألف نسمة ولهم معابدهم ومدارسهم الخاصة ويعد أكبر تجمع لهم

فى «الرملة» ولا يزال إيمانهم بالمذهب القرائى قويا فى مواجهة المذهب الربانى السائد فى إسرائيل.